

الرواية التاريخية والعصور الأدبية

Azra Parveen*

Abstract

The Historical Novel Changes in Arabic Literature this study discussed the historical novel changes in Arabic literature in the form and content through its long progression since the inception at the end of the nineteenth century up to the present era. This is to observe the work of the early pioneers of this art, note the factors that prompted them to write about it, and show the general characteristics of controlling the output of historical novels that represent traditional trends. Achieved by in addition, this study focuses on observing and monitoring the most important changes in historical reality novels that remind us of history. This should be seen as an artistic mask for discussing national issues and bringing about appropriate solutions by reminding the past to date. In addition, this study is the most updated in connection with the emergence of a new Arabian novel that uses history to present a comprehensive vision of the universe and life, using a series of contemporary art techniques that fuse the past and the present. The purpose was to show an important aspect and the past future.

Keywords: Historical Novel, traditional, national issues, comprehensive vision, techniques

تمهيد

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم. وبعد... إن الفن الرواية أهمية كبيرة جدا على المستويين العربي والدولي، وهو أحد الفنون الأدبية الحديثة، التي وفدت إلى عالمنا العربي في مطلع القرن التاسع عشر من أوروبا، وقد أعجب بها أدباؤنا وأنتجوا الكثير من الروايات التي عبرت بشكل واضح وجلي عن الواقع العربي، وأظهرت كذلك مدى إبداع الكتاب والأدباء العرب في ابتكار الصور الجديدة والخيالات المبدعة الخلاقة، ومدى قدرتهم أيضا على توظيف اللغة العربية في الكتابة الروائية توظيفا فنيا وشاعريا، فأضحى بحق هذا العصر هو عصر الرواية العلاقة بين الرواية والتاريخ علاقة وطيدة وقوية منذ نشأة الرواية كفن أدبي، إذ يعتبر التاريخ من الروافد الأساسية التي نهل منها الكتاب واستعانوا بها في إنتاج عدد من الروايات التاريخية التي تستلهم الماضي وتستدعيه لأغراض متعددة، وتبدو أهمية الروايات التاريخية بأشكالها المتنوعة في أنها تتعلق بالماضي التاريخي والتراثي والحضاري للأمة العربية والإسلامية، الأمر الذي يتصل بهوية الأمة اتصالا مباشرة، ويعبر عن أصالتها وعراقتها واستمراريتها في الحياة، فمن ليس له ماضٍ ليس له حاضر، ومن يتجاهل ماضيه، لن يسعى إلى استكشاف وبناء مستقبله، ولا جدال في أن استدعاء الماضي وتوظيفه روائية له دواع وأسباب ترتبط بحاضر الأمة ومستقبلها الفكري والاجتماعي والسياسي.

لاقت الرواية التاريخية رواجا كبيرا منذ نشأتها في الوطن العربي، ونالت الكثير من إعجاب القراء وترحيبهم، لما تحمله من روح

*Professor Department of Arabic, Baha ud din Zakariya University Multan

الفخر بالماضي العربي العريق والحنين إليه، وقد مرت الرواية التاريخية بمراحل متعددة وتعرضت إلى الكثير من التغيرات والتحويلات الموضوعية والفنية من خلال مسيرتها الطويلة منذ نشأتها أواخر القرن التاسع عشر وحتى عصرنا الحالي، وهنا تكمن أهمية موضوع بحثنا (تحويلات الرواية التاريخية في الأدب العربي الذي يعمل على ملاحظة وكشف ورصد أهم التحويلات التي تعرضت لها الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث على مستوى الشكل والمضمون. ويعني البحث بالتحويلات جميعها من جزئية وكلية، ومن موضوعية وفنية، ويلتقي مصطلح التحويلات هنا بمصطلحات التطور والتجديد والتوظيف الحدائي للتاريخ) دون تركيز على الفروق بينها.

الرواية التاريخية والعصور الأدبية

وتعد الرواية التاريخية أحد أهم أنواع الرواية بشكل عام، وقد تعددت تعريفات النقاد العرب والأجانب لها، إلا أنها تتفق جميعاً في النص على اعتمادها على التاريخ كمادة أساسية للعمل الروائي. ويمكننا التمييز بين نوعين من التعريفات، يتمثل النوع الأول في تناول التقليدي للرواية التاريخية، والذي يحرص على الأمانة في نقل الأحداث التاريخية وعلم تزييفها، أما النوع الآخر فيتمثل في تناول الحدائي والتجديد للتاريخ، حيث تستعمل الرواية التاريخ كمادة خام، لا نقلها أو إعادة صياغتها، ولكن لتحقيق أهداف روائية لا تتحقق إلا بها.

ومن أهم التعريفات التي تمثل الجانب التقليدي للرواية التاريخية تعريف معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة للرواية التاريخية بأنها: "سرد قصصي يركز على وقائع تاريخية، تنسج حولها كتابات تحديثية ذات بعد إيهامي معرفي، وتنحو - الرواية التاريخية - غالباً إلى إقامة وظيفة تعليمية وتربوية"⁽¹⁾ وجاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب تعريف آخر للرواية التاريخية، فهي: "سرد قصصي يدور حول حوادث تاريخية وقعت بالفعل، وفيه محاولة لإحياء فترة تاريخية بأشخاص حقيقيين أو خياليين أو بهما معاً."⁽²⁾

ومن تعريفات الرواية التاريخية القديمة والتقليدية أيضاً تعريف جونانان فيلد (J.Field) الذي يرى أن الرواية تعتبر تاريخية عندما تقدم تواريخ وأشخاصة وأحداثاً يمكن التعرض إليهم، وقد بين ستودارد (Stoddard) أن الرواية التاريخية تمثل سجلاً لحياة الأشخاص أو لعواطفهم تحت بعض الظروف التاريخية.⁽³⁾ فالرواية أو القصة التاريخية هي تسجيل الحياة الإنسان، ولعواطفه ولانفعالاته في إطار تاريخي. ومعنى هذا أنها تقوم على عنصرين، أولهما: الميل إلى التاريخ وتفهم روحه وحقائقه، وثانيهما: فهم الشخصية الإنسانية وتقدير أهميتها في الحياة.⁽⁴⁾

إنه ومن خلال الوقوف على التعريفات الجديدة للرواية التاريخية يظهر مدى التطور والتحول الذي أصاب هذا الفن الروائي حيث كثر تناول الكتاب للرواية التاريخية وفق رؤيتهم التي انتهت إلى الرواية الجديدة التي تستعمل التاريخ وتوظفه لأغراض حضارية حديثة.

¹ إبراهيم فتحى: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين، ١٩٨٦م)، ص ١٠٣

² مجدي وهبة وكامل الهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٦م)، ص ١٨٤

³ غدير يوسف: الرواية والتاريخ، ص ١١٣

⁴ محمد يوسف نجم: فن القصة (بيروت: دار الثقافة، ط٧، ١٩٧٩م)، ص ١٥٧

الرواية التاريخية ليست حديثة في الزمن الماضي، بل هي رواية تستحضر ميلاد الأوضاع الجديدة، وتصور بداية ومسارها وقوة دافعة في مصير لم يتشكل بعد، وتقوم على استخلاص فردية الشخصيات من الطابع التاريخي الخاص لعصرهم. (5) وهي عند جورج الوكاش: "رواية تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات". (6) ويعرفها ألفرد شيبارد (Alfred Sheppard) بقوله: "تناول القصة التاريخية الماضي بصورة خيالية، يتمتع الروائي بقدرات واسعة يستطيع معها تجاوز حدود التاريخ، لكن على شرط أن لا يستقر هناك لفترة طويلة إلا إذا كان الخيال يمثل جزءا من البناء الذي سيستقر فيه التاريخ". (7)

وتجدر الإشارة أيضا إلى مفهوم الرواية عند بيوكن (Buchan) فالرواية التاريخية لديه كل رواية تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ وهذا تحديد جيد من بيوكن يبرز فيه أن الرواية التاريخية لا بد من أن تختص بفترة تاريخية محددة يعمل فيها الكاتب أدواته الفنية لإعادة إظهار هذه الفترة إظهارا فنيا موحية بعيدة عن سطوة الوثائقية. (8)

ومن المفاهيم الهامة والجديدة للرواية التاريخية: "أنها بنية زمنية متخيلة خاصة، داخل البنية الحدثية الواقعية، أو بتعبير آخر هي تاريخ متخيل خاص داخل التاريخ الموضوعي. وقد يكون هذا التاريخ المتخيل تاريخا جزئيا أو عاما، ذاتيا أو مجتمعا، فقد يكون تاريخا لشخص أو الحدث أو لموقف أو لخبرة، أو لجماعة، أو للحظة تحول اجتماعي إلى غير ذلك. ورغم الاختلاف في الطبيعة البنوية الزمنية بين المتخيل والموضوعي، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة ضرورية، أكبر من تزامنها، هي علاقة التفاعل بينهما. فبنية الرواية لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ثمرة للبنية الواقعية السائدة الاجتماعية والحياتية والثقافية على السواء، وهي ثمرة بلغة التخيل لا بلغة الاستنساخ والانعكاس المباشر". (9)

الرواية التاريخية هي نتيجة الامتزاج التاريخ بالأدب؛ فالتاريخ ما هو إلا حقائق مجردة الوقائع تاريخية معينة سواء أكان الأمر يتعلق بالحوادث أم بالشخصيات، بيد أن هذا التاريخ المجرد عندما يدخل بنية أساسية تعتمد عليها الرواية يأخذ شكلا جديدة، بحيث يصبح عنصرا فنية من عناصر تكوين الرواية، فيخضع حينها الكاتب الرواية الذي يفسره وفقا لمزاجه الشخصي. (10)

ويفرق بعض الباحثين بين الرواية التاريخية وبين ما يسميه ب (رواية الرواية التاريخية) فالرواية التاريخية تقدم بطلها أو بطلتها بوصفها بوصفها نموذجا أو نمطة، وتستوعب المعلومات التاريخية وتصوغها بما يعطي إحساسا بقدرتها على الصمود لاختبارات الصدق والكذب، أما في رواية الرواية التاريخية فلا تحدث تلك النمذجة والتنميط، بل نجد طرحا للتساؤلات حول مصداقية التاريخ نفسه وكيف نتعامل معه، وكيف يصل إلينا الماضي وما الذي يصل إلينا منه؟". (11)

ويمكن التفريق بين الرواية التاريخية والرواية التي توظف التاريخ، في أن مصطلح الرواية التاريخية يدل على أن التاريخية صفة للرواية، أي أن الرواية تفقد خصائصها لصالح التاريخ الذي يهيمن بخصائصه على الرواية، ويطبوعها بطابعه على مستوى البيئة، والشخصيات، وطريقة السرد. أما الرواية التي توظف التاريخ فهي تخضع الخطاب التاريخي لسيطرتها، فتقدمه بطريقة جديدة،

⁵ إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، ص ١٧٧ - ١٧٨

⁶ أحمد عبدالله السومحي: الرواية التاريخية (جدة: بحث ضمن محاضرات النادي الأدبي الثقافي، ط ١، ١٩٨٥م)، المجموعة الثانية، ص ٨٩

⁷ عبدالرزاق عيد ومحمد جمال باروت: الرواية والتاريخ (سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، بدون تاريخ)، ص ١١١ - ١١٢

⁸ عبدالرزاق عيد ومحمد جمال باروت: الرواية والتاريخ، ص ١١٦

⁹ محمود أمين العالم: البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة (مصر: دار المستقبل العربي، ١٩٦٤م)، ص ١٣

¹⁰ مدخل إلى الرواية التاريخية ٢٣٧٣ = <http://odabasha.ipower.com/show.php?sid=2373>

¹¹ بهاء الدين محمد مزيد: النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها (مصر، ط ١، ٢٠٠٧م)، ص ١٧٩

تتناسب وطبيعة الخطاب الروائي. (12) فالمقصود برواية الرواية التاريخية هو نقد التاريخ وإعادة مساءلته، والنظر بتدبر في روايته؛ للتعرف على مدى صدق هذه الرواية أو كذبها، انطلاقاً من أن التاريخ في النهاية يعبر عن أيديولوجية كاتبه والعصر الذي كتب فيه. إن كتاب الرواية التاريخية الجدد يتناولون التاريخ بالتأويل والتحليل حسب أهدافهم الفكرية، وقد يحدثون شيئاً في المسار التاريخي لأن الأديب لا يكتب تاريخاً، بل يكتب أدباً فيه خيال أدبي خلاق، بناء على مرجعية ثقافية وجمالية تناسب عصره، وقد يكون هدفه نهضوي، إحيائي لواقع معاش. (13) فتتحرف الرواية بالتاريخ لغاية في نفس الكاتب، لا شأن لها في التاريخ إلا التسمية، بل هي عصرة لفكرة ما لدى الفنان. (14)

فالرواية التاريخية الجديدة: "عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له، ولكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته، بقدر ما تصور رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية؛ للتعبير عن تجربة من تجاربه، أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة لقوله". (15) يمكن من خلال التعريفات السابقة ذكر عدد من السمات والخصائص العامة التي يتم من خلالها التفريق بين الرواية التاريخية التقليدية، والرواية الجديدة التي توظف التاريخ لأغراض حضارية على النحو الآتي:

أولاً: الرواية التاريخية التقليدية:

- ١- تعتمد على أحداث ووقائع تاريخية موثقة حدثت بالفعل في الزمن الماضي.
- ٢- الأمانة في نقل الأحداث والمواقف التاريخية العامة والابتعاد عن تزييفها أو العبث فيها.
- ٣- تصوغ وتشكل المادة التاريخية بشكل فني خيالي دون التأثير على الملامح العامة للحدث التاريخي.
- ٤- تركز على الظروف الثقافية والفكرية والسياسية والاقتصادية لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب ضمن فترة تاريخية محددة.
- ٥- تعتمد على البناء الروائي التقليدي الذي يقدر الشخصية ويحافظ على تراتبية الزمن وتسلسله.
- ٦- التاريخ مرجعية للعمل الروائي.

ثانياً: الرواية التاريخية الجديدة:

1. تمثل الروائية في الرواية الجديدة المقوم الأول للعمل الروائي.
2. تتسم بالترهين الزمني، فهي تحمل معاني عميقة تمس الواقع المعيش، بحيث تربط الزمن الماضي بالزمن الحاضر.
3. تعبر عن أفكار الكاتب الروائي وأيديولوجيته الخاصة.
4. تسعى إلى تحقيق أهداف محددة يقصدها الروائي المبدع، ويشاركه فيها المتلقي.
5. تعتمد على الخيال كعنصر أساسي في بناء الحدث الروائي.
6. تتكى على البناء الحدائي للرواية، الذي يستعمل عدد كبير من التقنيات السردية الحديثة.
7. ليس لها مرجعية غير نفسها، وروايتها هي التي تقودها .

¹² محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢م)، ص ١٠٧ - ١٠٩

¹³ محمد بكر البوحي: روايات نجيب محفوظ التاريخية (بحث)، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، ط ٢، ٢٠٠٩م، ص ٢١٠

¹⁴ على شلق: نجيب محفوظ في مجهولة المعلوم (بيروت: دار المسيرة، ط ١، ١٩٧٩م)، ص ٩

¹⁵ عبد الحميد قط: بناء الرواية في الأدب المصري الحديث (مصر: دار المعارف، ط ١)، ص ٣٣

وبناء على ما تقدم يمكن تعريف الرواية التاريخية بأنها: ذلك الجنس الروائي، الذي يستعمل حادثة تاريخية موثقة، ويتناول شخصها وبيئتها الزمانية والمكانية، ويعيد صياغتها بشكل فني خيالي؛ للتعبير عن رؤية كاتبها وفكره في العصر الذي يعيش فيه.

أهداف الرواية التاريخية ودوافعها:

اعتمدت الرواية العربية في العصر الحديث على التاريخ، ولجأت إليه لعدة أسباب ودوافع؛ لتحقيق مجموعة من الغايات والأهداف، قد يرتبط بعضها بالروائي المبدع أو القارئ المتلقي، ويرتبط بعضها الآخر بالواقع العربي المأزوم والمعقد الذي يعاني الكثير من الضغط والقهر السياسي والاجتماعي والثقافي.

إن وظيفة الروائي التاريخي لا تقتصر على إعادة تسجيل الحقائق التاريخية ونقلها إلى القارئ، فهذه مهمة وثائق المؤرخ وسجلاته، وأما وظيفة الروائي التاريخي فتكمن في اختياره من تلك الوثائق والسجلات ما يمثل امتدادا لواقعه وحاضره، وما له صلة بواقعه وبفضاياه مجتمعه الراهنة، بما يعيد ذهن القارئ إلى تلك الصلة التي تشد الرواية التاريخية إلى الحاضر، على الرغم من توغلها في الماضي".⁽¹⁶⁾

ومن الملاحظ أن أغلب الروائيين العرب قد بدأوا إبداعهم الروائي بكتابة الرواية التاريخية مثل جورجى زيدان من لبنان، ومعرفة الأرنؤوط من سوريا، ومحمد فريد أبو حديد ونجيب محفوظ وجمال الغيطاني من مصر، وواسيني الأعرج من الجزائر.. وغيرهم. حيث يسهل على الكاتب في بداية حياته الروائية أن يستقي من التاريخ المادة الأساسية لرواياته من أحداث وشخصيات وزمان ومكان، وما عليه إلا إعادة صياغتها وتشكيلها، وإضافة بعض الأحداث والشخصيات الخيالية المتعلقة بالجانب الفني الروائي عليها؛ للتعبير عن أفكاره الخاصة، وعلاوة على ذلك فقد وجد الروائيون العرب في الرواية التاريخية مجالا خصبة للتعبير عن أفكارهم السياسية والاجتماعية والثقافية المختلفة. ويرى الباحث أن ارتداء التاريخ كقناع لمحاكمة الواقع ومسا عملته كان نتيجة لأسباب متعددة من أهمها الخوف من بطش الأنظمة الحاكمة في البلاد العربية، هذه الأنظمة ذات الحكم الشمولي المستبد التي لا تسمح لأي معارض أو مخالف بإبداء وجهة نظره بشكل مباشر وواضح، بالإضافة إلى امتلاء وغنى التاريخ العربي والإسلامي بنماذج كثيرة متقاربة مع الواقع في العصر الحديث، وعلى ذلك لم تكن العودة إلى التاريخ بغرض التاريخ ذاته، إنما اتخذت من التاريخ ستارة وقناعا لمعالجة قضايا الواقع. إن المتتبع للإنتاج الروائي في القرن التاسع عشر يلاحظ أنه قد هدف إلى تسليية القراء وإمتاعهم، في ظل رواج الصحف بما تحويه من قصص وروايات مشوقة. وقد فرضت طبيعة الحياة الاجتماعية على الكتاب أن يضيفوا على أعمالهم الروائية والقصصية، عناصر التثقيف والتثقيف والتعليم، حتى يطمئن القراء إلى جدوى هذه الأعمال، ولتنتفي من أذهانهم الأفكار السلبية تجاهها، ولعل هذا يفسر إصرار كثير من الكتاب والمجلات على أهمية الجانب الأخلاقي والتعليمي في الرواية.⁽¹⁷⁾ وتختلف نظرة المتلقين في تناول الرواية التاريخية، فمنهم من يعدها وسيلة للتسلية والترفيه وإزجاء وقت الفراغ، ومنهم من يعدها وسيلة لتعلم التاريخ، بأسلوب شيق وجذاب وسلس بخلاف كتب التاريخ الجافة. وفي كل الأحوال فقد لاقت الرواية التاريخية رواج كبيرة.

¹⁶ مريم فريجات: التجليات الملحمية في رواية الأجيال العربية (الأردن: وزارة الثقافة، ط ١، ٢٠٠٥م)، ص ٥٩

¹⁷ خلود إبراهيم جراد: تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٠م)، ص ٥٠

وقد اتجهت الرواية نحو التاريخ الوطني أو القومي أو العربي أو الإسلامي؛ لتستلهم الوجه الحضاري للمجتمع، أو الأصول التاريخية له، أو الأبطال الثوريين الذين عملوا على تغيير الحياة في ماضي أيامه".⁽¹⁸⁾

وكانت العودة إلى التاريخ أحياناً محاولة للهروب من الواقع العربي المهزوم والضعيف سياسية واجتماعية وحضارية، بسبب سيطرة الاحتلال الأجنبي على البلاد العربية في بداية القرن العشرين، وصعود الروح القومية والرغبة في الاستقلال، ثم الحكم الجبري الظالم، والهزائم العربية المتتالية بدءاً بضياح فلسطين عام ١٩٤٨م حتى هزيمة عام ١٩٦٧م، وفقدان الأفق والأمل في الغد.. كل ذلك دعا إلى البحث عن فترات المجد والقوة والعظمة في التاريخ العربي الإسلامي؛ لإحيائها وبعثها من جديد، وللتعبير عن رفض هذا الواقع الأليم، والدعوة إلى الثورة والتغيير. لهذا فإن "الروائي قد يجد نفسه مضطراً إلى مخاطبة الحاضر من خلال الماضي، وهنا يجد في

التاريخ مجالاً رحباً للتعبير عن نفسه عن طريق الرواية التاريخية".⁽¹⁹⁾

ويمكن تلخيص أهم أهداف كتابة الرواية التاريخية ودوافعها فيما يأتي:

تعليم التاريخ بأسلوب الرواية لترغيب الناس في مطالعته، وكان ذلك في مرحلة النشأة عند جورج زيدان ومن لحق به. إحياء الماضي وبعثه من جديد، وبخاصة المجيد منه الذي يمثل بطولة؛ لبث روح الاعتزاز والفخر بالتاريخ الوطني أو القومي. إسقاط الماضي على الحاضر، بتصوير الحاضر ومناقشة قضاياها من خلال النظر إلى الأحداث والمواقف المشابهة له بالتاريخ. الهروب إلى التاريخ، نتيجة لانتشار حالة اليأس والإحباط وفقدان الأمل التي يعيشها العالم العربي على كافة المستويات السياسية والاجتماعية والحضارية.

استشراف المستقبل، من خلال النظر إلى أحداث التاريخ، والتفكير في نتائجها وأخذ العبرة منها، وتجنب الأخطاء التي وقع فيها السابقون؛ لصنع غير أفضل.

الإبداع الفني، بإعادة صياغة وتقديم التاريخ وشخصياته بطرق فنية جديدة جذابة ومشوقة، تظهر ما لم تظهره كتب التاريخ. نقد التاريخ، فليس كل ما ورد في التاريخ صحيحة، فقد يشوب هذا التاريخ بعض التزييف ممن قاموا بكتابته، وقد ظهرت مثل هذه الأفكار في مدرسة الحداثة، التي تدعو إلى هدم الماضي والشك فيه. يتضح مما سبق الأهمية الكبيرة للرواية التاريخية، فهي لا ترتبط بالزمن الماضي فقط، بل تعبر عن الحاضر والمستقبل أيضاً، وتسهم في وضع رؤية جديدة لمستقبل أفضل من خلال النظر إلى الماضي.

بواكير نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي

كان لظهور الرواية التاريخية وازدهارها وتطورها في بلاد الغرب أثر كبير على ظهور وتطور الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فظاهرة التأثير والتأثر ليست غريبة على الآداب العالمية، بل هي ظاهرة طبيعية تعمل على تطور الآداب القومية والعالمية بشكل عام. فلا يستطيع أي إنسان أن يتطور إلا بالاستفادة من خبرات الآخرين وتجاربهم، والأخذ بالمفيد من آرائهم ودعواتهم، وكذلك المجتمعات والشعوب تؤثر وتتأثر ببعضها بعض. وأرى أننا هنا في حاجة للحديث عن الرواية التاريخية في بلاد الغرب قبل الحديث عن نشأتها عندنا في أدبنا العربي.

¹⁸ سيد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة (مصر: دارالمعارف، ط، ١٩٨٢م)، ص ٤٥

¹⁹ الرواية التاريخية العربية زمن الازدهار 17-ART-394&ID-17 <http://www.alarabimag.com/Book/Article.asp>

أولاً: نشأة الرواية التاريخية وتطورها في بلاد الغرب:

نشأت الرواية التاريخية في أوروبا مطلع القرن التاسع عشر، وذلك زمن انهيار نابليون تقريباً، فقد أدت الثورة الفرنسية، وانتشار الفكر الثوري، وظهور الاتجاه القومي والاعتزاز به في مختلف أنحاء أوروبا إلى زيادة الاهتمام بالتاريخ والاستفادة منه.

ومن الوجهة التاريخية نجد الرواية التي تأخذ من بعض حوادث التاريخ أو شخصياته أساساً لبنائها، قد نشأت في رحاب الرومانسية لأسباب تاريخية وسياسية، منها الاعتزاز القومي، وأسباب فلسفية اعتنقها أكثر الرومانسيين، كالرغبة في الهروب ورفض الواقع المعيش، يأساً منه أو ثورة عليه⁽²⁰⁾. وقد قدم الرومانتيكيون خدمة جليلة للرواية التاريخية، فقد طالبوا بإبراز الصبغة التاريخية، وبالإحساس بالعصر واستيعابه، وهذا ما نجده في روايات والتر سكوت⁽²¹⁾.

ويعد والتر سكوت⁽²²⁾ الأب الحقيقي للرواية التاريخية في الغرب، وقد تأثر به كل من جاء بعده. ومما هياً له هذه المكانة براعته في السرد، وثقافته، ووطنيته الاسكتلندية القوية، وذوقه في القديم⁽²³⁾ وعدم اعتماده على التاريخ بشكل كلي، فسلك بنظرته الجديدة إلى التاريخ طريق الشهرة والمجد، وتقوم الرواية التاريخية عنده على إحياء مرحلة تاريخية لم يعد لها وجود، وبعثها من جديد من خلال شخصيات تاريخية ذات شهرة - غالباً - وشخصيات خيالية يبتكرها الكاتب، يعرض من خلالها صورة العصر المراد بعثه وتسلط الضوء عليه من جميع النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية.

وتميز والتر سكوت بأنه يعرض بشكل فني الواقع التاريخي بتصويره للأزمات الكبرى في التاريخ الإنجليزي، ويجد في هذا الاتجاه تعبير مباشرة في الطريقة التي يبنى بها حركته، ويختار شخصيته المركزية. والبطل في أية رواية من رواياته هو دائماً سيد إنجليزي، أقل من البارز أي متوسط، فهو يملك بصفة عامة درجة معينة من الذكاء العملي، وشيئاً من الثبات الأخلاقي والاحتشام الذي يرتفع حتى إلى القدرة على التضحية بالذات⁽²⁴⁾.

وتعد رواية (وافرلي Waverley) لوالتر سكوت الصادرة عام ١٨١٤م أول رواية تاريخية تستدعي زمن ماضية بكل ألوانه الحاملة الزاهية، مع محاولة للتحليل التاريخي والاجتماعي، وقد كان لها التأثير الأكبر بعصرها الملحمي والتاريخي الممتزج بالخيال، إلى درجة أن التاريخ يستفيد من مدرسة الرواية في بث الحياة في لوحاته⁽²⁵⁾.

وقد نادى والتر سكوت بالحرية القصصية، وعدم التقييد بالتاريخ، خاصة إذا وقف حجر عثرة في سبيل ظهور القصة في إطار فني حر طليق، ولذلك تعرض لنقد الكثير من المؤرخين بحجة أنه لم يلتزم بالحقائق التاريخية، وأنه كان يعبث بالتاريخ ويحوره في سبيل القصة، فقد عبث باللغة مثلاً، ولم يتقيد بواقعها التاريخي، كما أنه غير التسلسل الزمني للأحداث، ولم يحافظ على الأجواء والبيئات

²⁰ محمد حسن عبدالله: الواقعية في الرواية العربية (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م)، ص ١٩٢

²¹ فؤاد المرغى: المدخل إلى الآداب الأوروبية (سوريا: منشورات جامعة حلب، ط ٢، ١٩٨١م)، ص ١٩٢

²² سكوت، السير والتر (Sir Walter Scott ١٧٧١- ١٨٣٢): شاعر وروائي اسكتلندي، يعتبر مؤسس الرواية التاريخية وأحد أكثر الروائيين شعبية في جميع العصور، من أشهر رواياته: "آيفنهو" Ivanhoe عام ١٨١٩، والطلسم The Talisman عام ١٨٢٥ (معجم أعلام المورد، ص ٢٤٠).

²³ الأدب المقارن، ماريوس فرنسوا غوبار، ترجمة هنري زغيب، ص ٥٣

²⁴ أحمد عبدالله السومحي: الرواية التاريخية، ص ٣٢

²⁵ الأدب المقارن، كلود بيشو وادريه روسو، ترجمة أحمد عبد العزيز (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٣، ٢٠٠١م)، ص ١٠٩

التاريخية. (26) وقد لاقت طريقة سكوت الكثير من الإعجاب لدى الروائيين التاريخيين في أوروبا، حيث إنهم اهتموا بإحياء الماضي ولم يهتموا بصحة المعلومات التاريخية، وحاولوا تقديم رواية ناجحة. (27)

ويستند سكوت إلى الطابع الشعبي في فنه، وهو يصور تحولات التاريخ الكبيرة بوصفها تحولات الحياة الشعبية، ويعني بذلك تأثير الحركات الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية على التحولات الكبيرة للتاريخ. ويبدو هدف سكوت الفني الكبير في تصويره للأزمات التاريخية في الحياة الشعبية هو إظهار العظمة الإنسانية، وهو بذلك يجعل التاريخ حية ومؤثرة. (28)

ويظهر بذلك دافع الكتابة عند سكوت فهو دافع قومي وطني، يظهر الكاتب من خلاله فخره بتطور شعبه وتقدمه، وهو يقرب الماضي ليحمله حية في الحاضر.

وعلى ذلك يمكن القول إن الرواية التاريخية الحديثة قد تجلت معالمها عند والتر سكوت الذي اعتنى بالخلق والخيال والإبداع داخل الإطار التاريخي، فكان ذلك تمهيدا لأعمال روائية أخرى سارت على هديه وحاولت تتبع القضايا العامة النابعة من روح العصر، ببيان رؤية وأيديولوجية الفنان التاريخية، هذه الرؤية التي تمنح الرواية أبعاداً حضارية وثقافية من شأنها أن توحد علاقة الإنسان بالتاريخ.

وقد ازدهرت الروايات التاريخية في أوروبا من عام ١٨٢٥ إلى عام ١٨٥٠، حيث نجد كل من ألفرد دو فيني في الخامس من مارس عام ١٨٢٦، ومانزوني في (المخطوبة) عام ١٨٢٧، وبعده بلزاك في (الثائرون) عام ١٨٢٩، وبروسير ميريمي في (تاريخ زمن شارل التاسع) عام ١٨٢٩، وفكتور هوجو في (نوتردام دي باري) عام ١٨٣١، ولبتون في (أيام بومبي الأخيرة) عام ١٨٣٤، وروبرت جريفز في (كلوديوس) عام ١٩٣٤، والكسندر دوماس في الفرسان الثلاثة) عام ١٨٤٤ والذي يعد من أكثر المتأثرين بالتر سكوت فقد اتبعه وسار على نهجه.

وقد استمر ظهور وانتشار الرواية التاريخية بعد ذلك فنجدها عند وليم ثاكاري في (هنري أزموند) عام ١٨٥٢، وفلووير في (سلايمبو) عام ١٨٩٢، وجورج إليوت في (رومولا) عام ١٨٩٣، وإيبيرس في (الأميرة المصرية) عام ١٩٦٤، وكذلك ظهرت في الأدب الروسي عند ليو تولستوي في الحرب والسلام) عام ١٨٦٩ وهي واحدة من أعظم الروايات التاريخية العالمية، تدور أحداثها في بداية القرن التاسع عشر، مع اجتياح القائد الفرنسي نابليون بونابارت للأراضي الروسية، ودخول موسكو وانسحابه بعد الخيبة والفشل في مواجهة الشتاء الروسي القارس، ورفض القيصر الروسي ألكسندر الأول الاستسلام، وهي تبدأ في النمو من فكرة مسيرة الأجيال التي تتغير وتتجدد دوماً⁽²⁹⁾ وهي رواية تاريخية من نوع فريد مستوحاة من ظروف الحياة الفعلية، تجمع بين التفسير الحضاري للتاريخ، والتفسير العاطفي الذي يصور العواطف الإنسانية الخالدة في حياة الأجيال، وبالتالي فهي الملحمة العصرية للحياة الشعبية التي تشكل الأساس الفعلي للأحداث التاريخية.⁽³⁰⁾

وقد مرت الرواية التاريخية في أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر بأطوار ثلاثة، تبدأ بطور الإيحاء التاريخي، والذي يفسر التاريخ من الخارج من خلال الحملات والمخاطرات والمبارزات والأسلحة والملابس للإشارة إلى فترات تاريخية محددة، وخير ما يمثل

²⁶ محمد يوسف نجم: فن القصة، ص ١٩٠

²⁷ إبراهيم السعافين: تحولات السرد (الأردن: دارالشروق، ط ١، ٢٠٠٦م)، ص ٣٩

²⁸ أحمد عبدالله السومحي: الرواية التاريخية، ص ٥٩-٦٢

²⁹ عبدالستار جواد: صناعة الرواية (العراق: دارالرشيد، ١٩٨١م)، ص ٣٧

³⁰ أحمد عبدالله السومحي: الرواية التاريخية، ص ١١٣

هذا الاتجاه والتر سكوت والكسندر دوماس، ثم اتجهت الرواية التاريخية إلى طور التحليل المنط والتفسير العقلي المبني على وقائع التاريخ ويمثل هذا الاتجاه ليتون وإيرس، ثم أخيرا طورالتفسير الإنساني العاطفي، الذي يقوم على تفسير التاريخ من الداخل، من خلال التركيز على العواطف الإنسانية الخالدة واستمرارها عبر العصور، ويمثل هذا الاتجاه ثاكارى.⁽³¹⁾

وقد تطورت الرواية التاريخية في أوروبا مطلع القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وما سببته من ويل ويمار للبشرية، فظهر اتجاه جديد يعبر عن أزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة، ومشكلة الفرد وعلاقته بالمجتمع، وما إلى ذلك من آراء وأفكار عقلية مثالية.

وما زالت الرواية التاريخية حتى عصرنا هذا تحتفظ بمكانة مرموقة عند الغرب، ويمكن القول بأنها تعيش عصرا ذهبية الآن على يد كثير من الكتاب المعاصرين أمثال خوسيه ساراماجو⁽³²⁾ صاحب (حصار لشبونة) عام ١٩٨٩ و (الإنجيل يرويه المسيح) عام ١٩٩٢، وماركيز⁽³³⁾ صاحب رواية (الجنرال في متاهة) عام ١٩٨٩، وفاليري مارتن⁽³⁴⁾ صاحبة (الملكية Property) عام ٢٠٠٣، وهيلاري مانتل⁽³⁵⁾ صاحبة (قصر الذئاب Wolf Hall) علم ٢٠٠٩، وأندرو ميلر⁽³⁶⁾ صاحب (النقي Pure) عام ٢٠١١ .. وغيرهم.

ثانيا: نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي:

اختلف النقاد العرب في بيان جذور الرواية التاريخية في الأدب العربي، وانقسموا في هذا الإطار إلى ثلاثة اتجاهات:
الاتجاه الأول:

وهو الأغلب الأعم يرى أن الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ما هي إلا نتاج للتأثر بالرواية التاريخية الغربية وخاصة روايات والتر سكوت والكسندر دوماس. "فالرواية العربية الحديثة لا يمكن اعتبارها امتدادا للتراث القصصي العربي القديم، وليس هناك ريب في أن القصة العربية الحديثة نتاج جديد، لا تربطه بأدبنا القديم وشائج".⁽³⁷⁾ وهي "دخيلة على الأدب العربي منذ عصر النهضة، شأنها فيه شأن غيرها من الأنواع الأوروبية التي لم يعالجها أدباؤنا من قبل، وقد بدأت بالترجمة والاقْتباس ثم استقرت في

³¹ محمد يوسف نجم: فن القصة، ص ١٩١ - ١٩٢

³² ساراماجو، خوسيه (١٩٢٢ - ٢٠١٠): كاتب أدبي وروائي ومسرحي برتغالي، حصل على جائزة نوبل في الآداب العام ١٩٩٨، تستعرض كتاباته عادة أحداث تاريخية ذات بعد إنساني في التاريخ البرتغالي.

³³ ماركيز، جابريل (١٩٢٧ - ٢٠١٦): روائي وصحفي وناشط سياسي كولومبي، قضى معظم حياته في المكسيك وأوروبا، من أشهر كتاب الواقعية العجائبية، حصل على جائزة نوبل في الآداب العام ١٩٨٢، كان رافضا للسياسة الأمريكية، ومن أشهر أعماله الروائية: "مئة عام من العزلة" عام ١٩٦٧، و "الحب في زمن الكوليرا" عام ١٩٨٥.

³⁴ مارتن، فاليري (Valerie Martin ١٩٩٨ /) : روائية وكاتبة قصة قصيرة أمريكية، من أهم رواياتها: "Alexandra" عام ١٩٧٩، و "Italian Fever" عام ١٩٩٩، و "Property" عام ٢٠٠٣ والتي تعد من أفضل الروايات التاريخية.

³⁵ مانتل، هيلاري (Hilary Mary Mantel ١٩٥٢): كاتبة وروائية بريطانية، بدأت الكتابة عام ١٩٨٥، حصلت على جائزة بولكر الأدبية عام ٢٠٠٩ على روايتها أقصر الذئاب "وعام ٢٠١٢ على رواية أخرجوا الجثث"، وكلتا الروايتين تتناولان حياة توماس كرومويل أحد مستشاري الملك الإنجليزي هنري الثامن.

³⁶ ميلر، أندرو (Andrew Miller ١٩٩١): كاتب وروائي بريطاني، من كتاب الرواية التاريخية، حصل على العديد من الجوائز الأدبية الدولية، من أهم رواياته: "Casanova" عام ١٩٩٨، و "Oxygen" عام ٢٠٠١، و "Pure" عام ٢٠١١.

³⁷ سيد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص ٩١

التأليف".⁽³⁸⁾ و "قد أقدم كتابنا على كتابة الرواية التاريخية متأثرين بالرواية التاريخية الغربية".⁽³⁹⁾ وقد أكد الدكتور شوقي ضيف هذا الرأي، وقال: "إنما حدث هذا التبدل الأدبي حين أخذوا يتصلون مباشرة بالآثار الأدبية الغربية ويتذوقونها، ولم يكتفوا بذلك فقد أخذوا يترجمونها، وشاركهم في هذه الترجمة عنصر عربي هاجر إلى ديارنا هو عنصر السوريين واللبنانيين، وكان هذا العنصر السوري اللبناني شديد الاتصال بالأدب الأجنبية".⁽⁴⁰⁾ ويؤكد الدكتور فوزي الحاج أن أصل فن الرواية غربي فيقول: "إن الموضوعية تقتضي أن نقرر أن فنون الأدب الموضوعية كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة قد استوردناها استيراداً ولم ينشأ منها لدينا شيء، وبالتالي فإن محاولة ربط الرواية أو المسرحية بأصول تراثية كالمقامات أو غيرها إنما هي محاولات غير جادة، ولا تستهدف روح العلم بقدر ما تستهدف أشياء أخرى".⁽⁴¹⁾

الاتجاه الثاني:

يرى أن الرواية التاريخية كانت تطورة طبيعية عن قصص التراث العربي القديم، كقصة عنترة، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس .. وغيرها . في "إن الانتاج الروائي العربي المعاصر، يصل إلى درجة من الأصالة تجعل من المذهل حقاً أن يكون هذا الفن وليد عشرات السنين فحسب، كما تجعل من المتعذر على التفكير العلمي أن يقبل ما يريده الكثيرون من أن هذا الفن مستحدث في أدبنا العربي لا جذور له، نقلناه مع ما نقلنا من صور الحضارة الغربية".⁽⁴²⁾ ومن الخطأ أن يقاس أدبنا على أدب الإنجليز والفرنسيين والألمان، إنما يقاس الأدب على مزاج الأمم التي يصدر عنها، وملاك الأمر في ذلك كله أن يعبر الأدب عن عقول أهله وأحلامهم وشهواتهم وما يجري في خواطرهم.⁽⁴³⁾

الاتجاه الثالث

يرى أن الرواية التاريخية نشأت نتيجة مزاجية بين الموروث من قصص التراث العربي القديم من جهة، وبين ما ورد إلينا من الغرب من جهة أخرى، حيث التمسح الوعي عن حركة مزاجية كبرى بين القصص القومي القديم بالوانه التقليدية والعصرية والشعبية والتجارية، وبين المثل العليا الغربية والإنسانية للقصة وتنتج عن حركة المزاجية انقسام القصص الفني إلى قصص تاريخي طويل وقصير وإلى قصص اجتماعي طويل وقصير".⁽⁴⁴⁾ وهكذا نجد جورجي زيدان قد استفاد من التراث في المادة التاريخية، ثم في بعض العناصر القصصية، التي أقام عليها الأحداث الخيالية في رواياته، وكان مصدره في المادة التاريخية كتب التاريخ، كما كان مصدره في بعض العناصر القصصية القصص الشعبي، كذلك استفاد الشكل الروائي من الأدب الغربي، وخاصة كتابات الروائيين التاريخيين.⁽⁴⁵⁾

ويوافق الباحث الاتجاه الثالث، في أن الروائيين العرب قد مزجوا بين ثقافتهم العربية وموروثهم العربي الأصيل من قصص شعبي يمجّد البطولة العربية، وبين القصص التاريخية التي وفدت إليهم من بلاد الغرب، فالكاتب أو المبدع لا يمكن أن ينقطع عن مجتمعه، حتى

³⁸نجيب العقيقي: من الأدب المقارن، ص ٣٣

³⁹عبدالحاميد قط: بنا الرواية في الأدب المصري الحديث، ص ٣٣

⁴⁰أحمد هيكل: الأدب العربي المعاصر في مصر (القاهرة: دارالمعارف، ط ٣، ١٩٧٩م)، ص ١٧٦ - ١٧٠

⁴¹فوزي الحاج: المسرحية والرواية والقصة القصيرة (غزة: جامعة الأزهر، ط ١، ١٩٩٧م)، ص ٢٠٢

⁴²فاروق خورشيد: الرواية العربية (مصر: دار الشروق، ط ٣، ١٩٨٢م) ص ٩، (عصر التجميع)

⁴³أنور الجندي: خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث (لبنان: دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٨٥م)، ص ٣٢٢

⁴⁴محمود حامد شوكت: الفن القصصي في الأدب المصري الحديث (مصر: دار الفكر، ١٩٥٦م)، ص ١٣٨ - ١٣٩

⁴⁵أحمد هيكل: تطور الأدب الحديث في مصر (مصر: دارالمعارف، ط ٦، ١٩٦٤م)، ص ١٩٦

ولو حاول تبقى طبيعته وفطرته المتأثرة بعاداته وتقاليده وثقافته الأصيلة. ففسح أدياؤنا العرب في العصر الحديث عددا كبيرا من الروايات التاريخية، التي تأثرت في شكلها الفني بالقصص التاريخي الغربي.

وقد لاحظ الباحث أن الرواية التاريخية العربية مرت عبر مسيرتها الطويلة بثلاث مراحل عامة شكلت علامات بارزة في تحولاتها الموضوعية والفنية، وقد جاءت على النحو الآتي:

- المرحلة الأولى: مرحلة النشأة والتي يمكن تسميتها بالرواية التاريخية التقليدية.
- المرحلة الثانية: تحولات الرواية التاريخية في ظل الرواية الواقعية، والتي يمكن تسميتها بالرواية التاريخية الواقعية.
- المرحلة الثالثة: التحولات التي أصابت الرواية التاريخية في ظل اتجاهات الرواية الجديدة، والتي يمكن تسميتها بالرواية التاريخية الجديدة.

وسبتم في هذا الفصل الحديث عن المرحلة الأولى (مرحلة النشأة وأبرز التحولات التي طرأت عليها، في حين سيستفيض الباحث في الحديث عن المرحلتين الأخرتين في الفصلين الثاني والثالث من الدراسة.

ثالثا: أعلام الرواية التاريخية العربية في مرحلة النشأة:

كان أول ظهور للرواية التاريخية في الأدب العربي في لبنان عند سليم البستاني (١٨٨٦-١٨٨٨) في رواية (زئوبيا) عام ١٨٧١، والتي تم نشرها متسلسلة في مجلة الجنان، وهي تصور موجات الصراع الذي دار بين ملكة تدمر، وبين الرومان في القرن الثالث، وقد أرادها تاريخية؛ لتشد إليها هواة التاريخ من القراء. ثم كتب (بدور) في أعداد عام ١٨٧٢ من مجلة الجنان، وأدارها حول أميرة أموية تقع في حب ابن عمها عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في شبه جزيرة الأندلس. وكتب بعد ذلك (الهيام في فتوح الشام) في أعداد سنة ١٨٧٦، وجعل أحداثها تدور حول فتح بلاد الشام في عصر الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر.

إلا أنه شاب هذا الإنتاج الروائي الكثير من العيوب، أهمها ضعف المعمار الفني الناتج عن علم الترابط وكثرة التفكك والتقطيع لأحداث الرواية، علاوة على كثرة المصادفات والمفاجئات والتدخلات بالعبء والحكم والمواعظ، ثم الابتعاد عن الوصف الحي للظواهر الاجتماعية والأخلاقية والتاريخية السائدة، فهي لا ترد إلا بشكل سطحي بسيط، إضافة إلى أن شخصيات هذه الروايات نمطية تأخذ صورة واحدة، لا تتغير ولا تتبدل بفعل الظروف والأحداث، وقد كانت لغة البستاني بسيطة دارجة قريبة من الناس، غير أنها كانت مسجوعة متكلفة.⁽⁴⁶⁾ ونلاحظ أن هذه اللغة في بساطتها وقربها من الناس تبدو متأثرة بالأسلوب الصحفي وبلغة الرواية الغربية، وفي محافظتها على السجع والبديع تبدي تعلقها بالقصص الشعبي والتراث السردى العربي. والكاتب بذلك حاول أن يوازن بين ما تعلمه من أسلوب غربي، وبين الموروث المسردى والقصصي الشعبي العربي الذي كان سائدة آنذاك.

ولا شك في أن سليم البستاني قد تأثر بالرواية الغربية، في العمل مترجمة رسمية في القنصلية الأمريكية قد مكنته من الاطلاع على جوانب كثيرة من الفن القصصي في اللغة الإنجليزية، وكشف له عن تيار حديث يوجه الفن القصصي في أوروبا أو أمريكا وجهة خاصة⁽⁴⁷⁾ إلا أن تأثيره هذا كان في الاتجاه والشكل الخارجي فقط، ولم يتطور ليشمل المعمار الفني للرواية الغربية.

وقد أثر سليم البستاني في اتجاه كثير من الكتاب نحو الرواية التاريخية، مثل: جميل نخلة المدور (ت ١٩٠٧) الذي أدار روايته التاريخية (حضارة الإسلام في دار السلام) عام ١٩٠٥ حول التنقل في البلاد أيام هارون الرشيد، حين مضى الأمير الفارسي يتعرف

⁴⁶عبدالرحمن ياغي: الجهود الروائية من مسلم البستاني إلى نجيب محفوظ (بيروت: دارالعودة، ط ١، ١٩٧٢م)، ص ٣٠-٣٣

⁴⁷راجع الى السابق، ص ٣٣-٣٦

بأحوال هذه البلاد ويضع يده على مواطن الإشراف فيها، وهي وثيقة تحاول أن تلم بالأوضاع التي قامت فيها الدولة آنذاك. (48) وكذلك فرح أنطون (١٨٧٦-١٩٢٢) الذي قام بترجمة العديد من الروايات الأجنبية، ثم قام بكتابة رواية (أورشليم الجديدة) سنة ١٩٠٤، والتي حاول فيها عرض تاريخ مدينة القدس وفتح المسلمين لها من وجهة نظر مسيحية، ومن خلال قصة غرامية تجمع بين قلب شاب مسيحي وقلب فتاة يهودية، إلا أنه لم يتمكن من إقامة البناء الفني للرواية بشكله الصحيح رغم ثقافته ومعرفته بالرواية الغربية. وظهر أيضا يعقوب صروف (١٨٠٢-١٩٢٧) والذي عمد إلى كتابة الرواية الاجتماعية والتاريخية، ومن أشهر رواياته (فتاة مصر)، و (أمير لبنان). والرواية عنده "أخلاق ووعظ وإرشاد ومدرسة تنطلق في فصولها المحاضرات الأمر الذي أدى إلى ضعف البناء الفني للرواية، وتفكك وحدتها الفنية والموضوعية. وهذه السمة غالبية على كل الروايات في تلك المرحلة. في "لو أننا بحثنا عن مدى توفر الخصائص الفنية والموضوعية فيما كتبه اللبنانيون حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين لما ظفرنا برواية واحدة مكتملة، فقد اضطرب النتاج وتعرثر، وتذبذب الكتاب بين الهدف التعليمي أو الأخلاقي وبين تسلية القارئ وإمتاعه، وراحوا يضربون في كل لون". (49)

جورجي زيدان (١٨٩١-١٩١٦) الذي تخصص في كتابة الرواية التاريخية نقطة تحول وانطلاق حقيقي لها في الأدب العربي، حيث تبنى الاتجاه التاريخي للرواية، ولم يغير اتجاهه هذا حتى آخر حياته، فكتب اثنتين وعشرين رواية تاريخية، وأطلق عليها تسمية روايات تاريخ الإسلام، وقد كانت رواياته أفضل حالا وأكثر تماسكا من سابقتها في الناحيتين الفنية والموضوعية، ويعد معظم النقاد رائد الرواية التاريخية في الأدب العربي.

ويبدو تأثر جورجي زيدان بالرواية التاريخية عند والتر سكوت والكسندر دوماس بشكل مباشر وبلغاتهم الأصلية في المقدمة التي كتبها لرواية (الحجاج بن يوسف الثقفي) والتي يقول فيها: "وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته، والاستزادة منه، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج". فكان الأثر الواضح لكتاب الغرب أنهم أشاروا الجورجي زيدان إلى الاتجاه فقط، أما شكل رواياته فكان مدينة فيه للبيئة والتاريخ والتراث الشعبي، فقد حاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية، وبين تأثره بالشكل الروائي الغربي من ناحية أخرى. (50)

كان تأثر جورجي زيدان بالرواية الأوروبية تأثرة ظاهرية شكلية فقط، فهو لم يلتفت إلى الخصائص الفنية للرواية كفن أدبي خيالي، وإنما أراد للرواية أن تكون خادمة للتاريخ معلمة له، قمت الرواية على التاريخ، فاعتمدت على بعض بخلاف الرواية التاريخية في الغرب التي الحوادث التاريخية إلا أنها تحررت من قيود التاريخ، وأعطت الرواية حقه في بعدها الفن والخيالي. ثم لم تظهر العاطفة القومية في روايات جورجي زيدان تلك العاطفة التي وجهت رواد الرواية التاريخية في الغرب، فلم نلاحظ أي تعاطف أو حنين من طرفه تجاه التاريخ العربي الإسلامي.

وقد استمر ظهور الرواية التاريخية بعد جورجي زيدان، ففي مصر كتب أحمد شوقي (١٨٩٨-١٩٣٢) رواية (لادياس الفاتنة) عام ١٨٩٩م، التي استدعت التاريخ الفرعوني، واعتمدت البناء التقليدي البسيط للرواية التاريخية الذي يقوم على قصة الحب كحال

⁴⁸ راجع الى السابق، ص ٤٤

⁴⁹ سيد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص ٩١

⁵⁰ أحمد هيكل: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)، ص ٩٦ - ٩٧

الروايات التاريخية السابقة. كما ظهر علي الجارم (١٨٨١-١٩٦٩) الذي قدم العديد من الروايات التاريخية منها (فارس بني حمدان)، و (الشاعر الطموح)، و(غادة رشيد)، و(هاتف من الأندلس)، و(شاعر ملك). ثم جاء محمد فريد أبو حديد (١٨٩٣-١٩٩٧) الذي يعتبر البداية الحقيقية المتطورة للرواية التاريخية ذات الاتجاه الوطني والقومي، حيث الاعتزاز بالتاريخ العربي والفخر به في (الملك الضليل)، و (المهلهل سيد ربيعة)، و (زنوبيا ملكة تدمر). وكذلك برز محمد سعيد العريان (١٩٦٤-١٩٠٥) الذي اقتصر على تاريخ مصر الإسلامي، وخاصة عهد الأيوبيين والمماليك في قطر الندي، و (شجرة الدر)، و(على باب زويلة). وظهر أيضا عبد الحميد جودة السحار (١٩١٣-١٩٧٦) الذي تناول التاريخ الإسلامي فكتب السيرة النبوية في عشرين كتابا أقرب إلى القصة في صياغتها، و قدم الكثير من الروايات التاريخية أشهرها (أحمس بطل الاستقلال) و (أميرة قرطبة)، و(قلعة الأبطال).

أما في لبنان فقد برز كرم ملح كرم (١٩٠٣-١٩٥٩) الذي ألف عددا من الروايات التاريخية منها: (دمعة يزيد) ١٩٤٦، و(صقر قريش) ١٩٦٨، و (فقهة الجزائر) ١٩٥١، وتحدثت الرواية الأولى عن يزيد ودهاء الخليفة معاوية، أما الرواية الثانية فتدور حول قصة غرامية تمثل الصراع الذي قام بين الهاشميين والأمويين في عهد سليمان بن عبد الملك، والرواية الأخيرة تتناول التاريخ الحديث. إلا أن هذه الروايات لم تسهم بأي جديد، فهي تعتمد على جذب القارئ وتشويق لغرابته ما تقدمه من أحداث.⁽⁵¹⁾

ولم تتح للرواية التاريخية في سوريا فرصة تأكيد وجودها في مواجهة تيار جورجي زيدان وزعامته للرواية التاريخية حتى ظهر معروف الأرنؤوط (١٨٩٢-١٩٩٨) الذي أظهر اتجاهها قومية واضحة في أربع روايات تاريخية، الأولى بعنوان (سيد قريش) عام ١٩٢٩ والتي عرض فيها سيرة النبي محمد في ثلاثة أجزاء قاربت الألف صفحة، وكانت روايته الثانية (عمر بن الخطاب) ١٩٣٦، ثم أصدر في عام ١٩٤١ روايته الثالثة (طارق بن زياد)، وأعقبها عام ١٩٦٢ بروايته الرابعة (فاطمة البتول)، وهو في رواياته جميعا يبدي اعتزاز كبيرة بالتاريخ العربي الإسلامي.⁽⁵²⁾ ولم يكن الاتجاه القومي ظاهرة في تلك المرحلة والعل معروف الأرنؤوط يتفرد بوجود الإحساس القومي الذي وجه رؤيته للتاريخ من أحداثه وشخصياته ومغزاه فكرة وحضارة.⁽⁵³⁾ ومع ذلك ظلت رواياته من الناحية الفنية تدور في نطاق المرحلة الأولى للرواية التاريخية.

كذلك ظهرت الرواية التاريخية في الأردن عند روكس العيزري (١٩٠٣-٢٠٠٦) في رواية أبناء الغساسنة وإبراهيم باشا) عام ١٩٣٧ وهي تركز على التاريخ الحديث، وتظهر تصدي شيخ الكرك وسليل الغساسنة إبراهيم الضمور لحملة إبراهيم باشا عام ١٨٣٢ التي تهدف إلى السيطرة على بلاد الشام في ظل ضعف الدولة العثمانية، وتبرز في الرواية روح المقاومة والشرف والكرامة التي يدفع البطل مقابلها ثمنا غالية حيث يضحى بولديه حفظة وصيانة لشرفه وكرامته، ومن الواضح أن "هدف الرواية هو استنهاض الهمم ودفع النفوس إلى التحدي والإباء والمقاومة وهي بهذا لا تخرج عن إطار الوعظ والإرشاد".⁽⁵⁴⁾

ظهرت الرواية التاريخية في المغرب العربي التي تأثرت بمثباتها في الشرق العربي، مثل رواية (وزير غرناطة) للكاتب المغربي عبد الهادي بوطالب عام ١٩٦٠، كنموذج للتوثيق التاريخي لسيرة لسان الدين بن الخطيب في صراعه السلطة والطامعين فيها. ويرى الدكتور جميل حمداوي خلو هذه الرواية من التحليل الفني، وهيمنة البعد المرجعي والرؤية المعرفة على فضاءاتها وشخصياتها

⁵¹عبدالرحمن ياغي: الجهود الروائية من سليم البستاني إلى نجيب محفوظ، ص ٩٩

⁵²سامي الكيالي: الأدب العربي المعاصر في سورية (١٨٠٠-١٩٠٠)، (مصر: دارالمعارف، بدون تاريخ)، ص ٢٥٠ - ٢٠٢.

⁵³إبراهيم السعافين: تحولات السرد، ص ٦٥

⁵⁴إبراهيم خليل واخرون: معالم الحياة الأدبية في فلسطين والأردن (١٩٥٠-٢٠٠٠)، (الأردن: مؤسسة عبدالحميد شومان، ٢٠٠٩م)، ص ٤٦٣-٤٦٤

وأحداثها، والارتكان إلى الأسلوب التقريري المباشر فهذا مع العمل فيه الفائدة التاريخية المحضنة أكثر من المتعة الفنية والتشويق الجمالي".⁽⁵⁵⁾

وفي فلسطين، لم تواكب الرواية التاريخية مثيلاتها في الوطن العربي، ولم تظهر في مرحلة مبكرة توازي نشأتها في غيرها من البلدان، وذلك "ليس لأنهم مفصولون عن تاريخهم وماضيهم وحضارتهم، ولكن لأن رؤيتهم للواقع وارتباطهم به فكرية، ووجدانية، وفنية طغى على فما حصل في فلسطين لم يحصل في أي مكان آخر، فالتخطيط لنهب الأرض، وطرد أهلها منها، وإحلال اليهود الصهاينة محلهم، أمر جلل وخطير لا بد من مواجهته بأقصى سرعة، فاصطدم الإنسان الفلسطيني عامة والأديب والمنتقف خاصة بواقعه وعمل على مواجهته بكل ما يملك من قوة، وكان هذا الواقع المرير الذي يعايشه لا يدع له فرصة للنظر إلى التاريخ والتفكير فيه، فواقعه يرسم أمام عينيه تاريخ بلاده الذي يرجو أن يكون مشرفاً ومشرفاً.⁽⁵⁶⁾

بناء على ما سبق، يمكن القول بأن سليم البستاني، وجورجي زيدان، ومعروف الأرنؤوط، وفرح أنطون، ويعقوب صروف، ومحمد فريد أبو حديد.. وغيرهم يمثلون الجيل الأول من كتاب الرواية التاريخية في الوطن العربي، الجيل الذي اتجه نحو التاريخ إما بغرض التسلية والترفيه وجذب القراء القراءة الصحف حيناً، وإما بغرض تعليم التاريخ حيناً آخر، وفي كلتا الحالتين لم ترقى الرواية التاريخية في تلك المرحلة إلى المستوى الفني للرواية الغربية. ومع ذلك فهذه الروايات أهمية كبيرة؛ فهي تعد مقدمة مهدت الطريق لظهور الرواية التاريخية، وزيادة الاهتمام بها وانتشارها بعد ذلك بشكل أقوى فنية وموضوعية.

خلاصة البحث

ناقشت هذه الدراسة تحولات الرواية التاريخية في الأدب العربي شكلاً ومضموناً عبر مسيرتها الطويلة منذ نشأتها في نهاية القرن التاسع عشر وحتى عصرنا الحالي، وذلك بتبع إنتاج الرواد الأوائل لهذا الفن، وبيان العوامل التي دفعتهم للكتابة فيه، مع وضع السمات العامة التي سيطرت على إنتاجهم الروائي الذي مثل الاتجاه التقليدي للرواية التاريخية، بالإضافة إلى ملاحظة ورصد أهم التحولات الفنية والموضوعية التي طرأت على الرواية التاريخية ذات الاتجاه الواقعي التي تستدعي التاريخ؛ لتتخذ منه قناعة فنية يناقش قضايا الأمة وي طرح الحلول المناسبة لها من خلال إسقاط الماضي على الحاضر، كذلك ركزت الدراسة على بيان أهم مظاهر تستعمل التاريخ، في سبيل تقديم رؤية شاملة للكون والحياة باستخدام عدد من التقنيات الفنية الحديثة التي تعمل على المزج بين التجديد التي ارتبطت بظهور الرواية العربية الجديدة التي الماضي والحاضر والمستقبل.

⁵⁵ انظر، رواية التوثيق التاريخي <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=87110>

⁵⁶ سيد النساج: بانوراما الرواية العربية الحديثة، ص ١٦١